الفصل الثالث

في فضائل مصر ونيلها المبارك

لا يخفى على ضمائر أولي البصائر أن لمصر فضائل كثيرة أعظمها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة بالإيماء منها قوله تعالى)(إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم) ومنها (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) ومنها (أخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) وغير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن وروى ابن لهيعة من حديث عمرو بن العاص حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول أن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطهاً خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة وقال عبدالله بن عمر من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن فضائلها أنه ولديها من الأنبياء موسى وهرون ويوشع عليهم السلام ودخلها من الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ويعقوب ويوسف والأسباط وعيسى بن مريم عليهم السلام وكان منها جلساء فرعون الذين أبان الله فضيله عقلهم بحسن مشورتهم في أمر موسى وهرون عليهما السلام قال تعالى (قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) ولم يقولوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) ولفظ المدائن مما يدل على عمارة أرض مصر في تلك الأيام.

ومن فضائلها أن محصولات أرضها تمير كثيراً من الممالك الأجنبية فثغر السويس والقصير يحمل منهما إلى الحرمين واليمن وعمان وثغر دمياط إلى بلاد الروم والشام وأسيا الصغرى وثغر الغسكندرية إلى بلاد المغرب والأفرنج أما الصعيد فيحمل منه إلى الواحات والنوبة والسودان وغير ذلك ويوجد بها في كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول أو المشموم فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه ورميس أمشير ولبن برمهات وورد بزموده ونبق بشنس وتبين بؤنه وعسل أبيب وعنب مسري وبها مقاطع الرخام والمرمر وحجر السماق الأخضر والجرانيت الأحمر والزمرد والعقيق وبعض المعادن القابلة للتطريق والمياه المعدنية

والعيون الكبريتية وقالوا أنه كان يرى في بئر أسوان قرص الشمس وهي في أول برج السرطان فنتج عن ذلك مسئلة علمية ونظرية فلكية [1] وكان منها أول من وضع علم الجغرافية والأحرف الهوائية.

ثم أن هذا التأخير السنوي ناشئ من الإنبعاج الحاصل في قطبي الأرض التي صارت به غير صادقة الكروية فإختلف بذلك تأثير قوة الجذب العام عليها حتى صار قطبها يرسم في كل ست وعشرين ألف سنة دائرة كاملة وقد شبهوا ذلك بنحلة من خشب أدارها غلام فوق الأرض بشدة فدارت بسرعة عظيمة وصار طرفها الأعلى يتمايل ويرسم دائرة وإلى هنا وقف القلم عن الخوض في علم الفلك اذليس هذا محله ومن أراد الإستيفاء فعليه به.

وما تنبه الفلكيون إلى هذه النظرية المهمة إلا من رواية مشاهدة قرص الشمس في آبار أسوان يوم المنقلب الصيفي ويستنتج من هذه النظرية أن حرارة المنطقة المعتدلة الشمالية كانت في غابر الأزمان أشد مما هي عليه الآن لأن الشمس كانت تسلمت رؤوس أهل هذه البلدة في يوم المنقلب الصيفي أي في ٢١ من شهر يونيه من كل سنة والإثبات على ذلك أن سكان شمال الصين يسافرون الآن في كل سنة وقت الصيف إلى بلاد سيبريا الشديدة البرد التابعة لبلاد المسكوف أو بني الأصفر ويحفرون الثلج فيجدون تحته رمم الأفيال المعروف نوعها باسم محمود فيخرجونها وهي تامة لم يصبها التلف لأنها محفوظة تحت الثلج فيأخذون عظامها ويبيعونها في

---

(١) قد إتفق علماء الجغرافية قديماً أنهم ما كانوا يرون ظلهم في بلدة أسوان وقت الظهر في يوم المنقلب الصيفي أي متى حلت الشمس في برج السرطان أعني في يوم واحد وعشرين من شهر يونيه من كل سنة وقالوا أنهم كانوا يرون في هذا اليوم قرص الشمس في آبار هذه البلدة وقت الظهر ولكن بتداول القرون والأحقاب زالت هذه الحالة وانقطع خبرها فتنبه علماء الفلك بعد ذلك لهذا الأمر الغريب وقالوا أن بلدة أسوان لم تتزحزح عن مكانها إلى جهة الشمال وآبارها موجودة وقرص الشمس موجود وأن مثل هذا التغير لا يحصل إلا من حدوث إنحراف في محور الارض ولكن بشدة البحث ومراجعة كتب قدماء الفلكيين ظهر لهم أن نجم القطب الشمالي الواقع في نهاية ذيل الدب الأكبر كان مرتفعاً عن قطب الأرض بأكثر مما هو عليه الآن بحيث لو تصوروا الآن مد خط مستقيم على إستقامة محور الأرض من جهة الشمال حتى يلتقي السماء لوجدوا أن النجم المذكور يعلو عنه بقدر درجة واحدة وأربع وعشرين دقيقة فعلوا أن هذا النجم لابد أن يختفي تحت الأفق بعد مضي آلاف من السنين وتدنو من القطب نجوم غيره تم تختفي ألى أن يحل مكانها المجموع النجمي المعروف عندهم باسم (النسر الواقع) الذي يشاهد الآن في كبد السماء ثم تعودا لحالة لما كانت عليه أولًا بعد مضي ست وعشرين ألف سنة ومن ذلك علوا أن محور الأرض ينحرف دائماً عن إتجاهه وتتأخر نقطة الإعتدال الربيعي في كل سنة من المشرق إلى المغرب شيأ يسيراً جداً غير محسوس وبناء على دلك تتأخر الشمس في كل ألفين ومائة سنة درجة واحدة أي ستين دقيقة (نقطة الإعتدال الربيعي هو مكان الشمس وقت الظهر في يوم ٢١ من شهر مارس من كل سنة).

المتجر باسم الحاج ومن المعلوم أن الفيلة لا تسكن إلا الأرض الحارة فيعلم من هذا جلياً أن هذه البقعة الشديدة البرد الآن كانت في قديم الزمان حارة جداً حتى كانت وطنا للأفيال وقال بعض العلماء أن سبب ذلك نقص حصل في حرارة الشمس والله أعلم.

ومنها أنها بقيت على حالها العجيب وبختها الغريب نحو السبعة آلاف سنة وهي حافظة لتربتها العلياء ولها اليد البيضاء صاحبة المآثر والتأثير الظاهر فتارة تراها كأنها جدة الأمم وأخرى كأنها أميرة سادت بقوة السيف والقلم شهرتها أكبر من أن تذكر وفي معيار العلوم لها الحظ الأوفر والبرهان على ذلك أن الحكيم سولون مشرع بلاد اسبارطه اليونانية لما أراد أن يتتلمذ بمدرسة عين شمس أي المطرية قال له أحد كهنة صا الحجر بعدما إختبره بالإمتحان وسبره في ميدان العرفان (لم نر فيكم شيخاً في العلوم والآداب وجميعكم أطفال يا معشر الأغراب) ومع ذلك كانت شوكتها قوية وهيبتها مرعية نافذة الأحكام وجارها لا يضام بدليل ما ترى على بعض آثارها من صورة الملك طوطوميس والملك أمونوفيس ورمسيس الأكبر المعروف باسم (سيزوستريس) كل واحد منهم جارّ خلف عربته الملوكية رؤساء الأمم الأجنبية وهم مكبلون في حديدهم ومغبرون في صعيدهم وكذا في مدة الحروب الصليبية أعني في آخر الدولة الأيوبية كان بها سنلويس ملك الفرنسيس مأسوراً بمدينة المنصورة يتجرع كأس الهوان في دار ابن لقمان.

ومنها أنها كانت ولم تزل مورد أعذباً لأولي المآرب من المشارق والمغارب وموطناً للعلماء وملجأ للحكماء فكانت هي ربة السيادة المطلقة ولم يكن لسنواها اسم يذكر ولاخبر يؤثر ولا قلم يكتب ولا بليغ يخطب ولا قانون يجمع ولا أحكام تسمع ولا ألفة مدنية ولا محبة وطنية وما إقتبس الناس معارفهم إلا من نور مصباحها وسناء صباحها كيف لا وفضلها ثابت في القرآن الحكيم في قوله تعالى (إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فنيلها نيل المرام وبرها بر الأنام وأبليزها أبريز وموطنها عزيز ومازالت تتداولها الأيام وتقلبها السنون والأعوام حتى حكمتها بطالسة اليونان وأينع دوح مجدها بثمر العرفان فهرع إليها كل فاضل جليل ومن له في العلوم باع طويل فصارت دار كتبها بمدينة الإسكندرية كعبة تزورها علماء الدول كما كانت عاصمتها مركزاً لتجارة جميع الملل ثم إنحط بعد ذلك قدرها وكذب فجرها بإستيلاء من جردها عن مزاياها وبذل عنها قيمة لا ترضاها ولكن بمجرد ما أفل منها بدر التأليف والصناعة أشرقت فيها شموس الفلاحة والزراعة فكان يخرج من أرضها محاصيل مالها مثيل حتى كان اسمها في ديوان رومة شونة الغلال ومصدر الأموال ثم لم يمض عليها برهة زمنية إلا وإمتازت بالقوة العقلية فنالت بقوة

الأقلام مالم تنله بالأسلحة والأعلام أو ليست مذاهبا الفلسفية التي ظهرت بمدينة الإسكندرية في تلك الأحقاب القديمة والأعصر الوخيمة أمدت أفكار علماء القسطنطينية وأرشدتهم إلى المباحثات العلمية والمجادلات الدينية وأنتجت إختلاف المذاهب وتشعب المشاعب حتى أفض ذلك إلى المشاجرة وعقد مجالس المناظرة وإنحطاط قدر الامبراطرة وقيام الشقاق على قدم وساق وإنتهى الأمر بالتدوين والتأليف والترجمة والتصنيف وتلقفتها أيدي الأمم من عرب وعجم فكانت كتب ذلك الزمان هي السبب لما وصل إليه الإفرنج الآن من درجة الكمال وحسن الأحوال ومن ذا الذي ينكر قدرها أو يغمس برها وقد قامت في مدة دولة العرب لإجتناء يانع الرطب وغيرها يحتطب الحطب فجددت دوارس الفنون وأحرزت درها الممكنون.

ومنها أن أهلها لينو العريكة دمثاء الاخلاق يبعدون عن الفتن والشقاق موصوفون بموالاة الجيل وإكرام النزيل فهم أسرع إلى الخيرات وعمل المبرات وأسهل للتعليم والتعلم وأقرب للحضارة والتقدم وأطوع لاؤلي الأمر منهم حتى أن قدماءهم عبدوا ملوكهم كعبادتهم الثور ونقلوهم من طور البشرية إلى أشرف طور قد وقاهم الله شر الجوع والبرد بما خص أرضهم من الخصوبة ودرجة الحرارة المطلوبة فإن هاتين العائلتين يجلبان أحياناً الفتن ويسببان العداوة والمحن فهي أمراض حقيقية في جسم الحضارة والمدنية وفي ذلك يقول العيزاوي رحمه الله

لعمـــرك مـــا مصـــر بمصـــر وإنمـــا هـــي الجنـــة الـــدنيا لمـــن يتبصـــر
فأولادهـــا الولـــدان والحـــور عينهـــا وروضـــتها المقيـــاس والنيـــل كـــوثر

ثم إن حلاوة مائها ولطافة هوائها وصحو سمائها وإعتدال إقليمها وإعتلال نسيمها التي بلغت حد الكمال وضربت بها الأمثال تجلب إليها دائماً طمع الأجانب من كل ناحية وجانب فيأتون إليها و يتخذونها سكناً أو يدعونها وطناً ومنها توسط بقعتها ما بين قارة أوروبا وآسيا وإفريقا وأحاطتها ببحرين عظيمين وهما البحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال والبحر الأحمر أو بحر القلزم من جهة الشرق حتى صارت بذلك مركزاً للتجارة العامة ومطمح نظر الخاصة والعامة وحطاً للرجال ما بين وفود وترحال فلذا كان لا يكاد يحدث أمر ذو بال إلا ولمصرفيه يد بضرورة الأحوال فهي تمتاز بهذه الخاصية كما يمتاز تاريخها عن تواريخ الممالك الأجنبية وقال ابن اياس قد وصف بعض الحكماء أرض مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر كهربة صفراء وذلك أن أرض مصر يركبها النيل

وقت فيضه فتكون بيضاء من إفتراش الماء عليها ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء عنها ثم تصير زمردة خضراء وقت الربيع ثم يصير زرعها أصفر كالذهب اه.

ومنها أن القدرة الإلهية التي أحرمتها من الأمطار والغيث المدرار عوضتها عنه بعادل سلطان نيلها العميم الذي هولها أعظم صديق وحميمز

أما النيل فماذا نقول فيه وهو سلطان الأنهار وحياة هذه الديار وروح جثثانها وإنسان عين إحسانها إذ لولا وجودم لما كان لها وجود ولولا جوده لما إخضر لها عود ولولا فضل الله عليها بهذا النهر الميمون لكانت مجردة عن جميع ما كان وما يكون ملحقة بالقاع كما جاورها من البقاع لأنها محاطة من الشرق بصحاري أسيا المقفرة ومن الجنوب بعطامير أفريقيا المنفرة ومن الغرب ببراري برقة الموحشة وسباسبها المدهشة فالنيل كله منافع في المزارع والصنائع مزاياه لا تحصى ولا تحصر وهو لجنات مصر نهرها الكوثر وللشيخ علاء الدين الوداعي رحمه الله.

رق بمصـــــــــــر وســـــــــــكانها شـــــوقي وجـــــدد عهـــــدي الخـــــالي
وأرو لنـــــا ياســـــعد عـــــن نيلهـــــا حـــــديث صـــــفوان بـــــن عســـــال

ومن عجائب أمره أنه يأتيها في أيام معدودة وأوقات محدودة فيتحفها بخبراته ويحفها ببركاته ويعمها بوابل مسراته ثم يعود إلى ما كان مع التؤدة والإطمئنان فهو جواد ودود وهي منتجة ولود خلافاً لباقي الأقطار التي فيها فيضان الأنهار مصيبة عامة وداهية طامة وقد أكثر الشعراء من أوصافه ومحاسن ألطافه منها قول بعضهم.

كـــــأن النيـــــل ذو عقـــــل ولـــــب لمـــــا يبـــــدو لخـــــير النـــــاس منـــــه
فيـــــأتي حـــــين حـــــاجتهم إليـــــه ويمضـــــي حـــــين يســـــتغنون عنـــــه

وما أحسن قول أبي الحسن المعروف بابن الوزير

أرى أبـــــداً كثـــــيراً مـــــن قليـــــل وبـــــدرا في الحقيقـــــة مـــــن هـــــلال
فـــــلا تعجـــــب فكـــــل خلـــــيج مـــــاء بمصـــــر مســـــبب لخلـــــيج مـــــال
زيادة أصـــــــبع في كـــــــل يـــــــوم زيادة أذرع في حســـــــن حـــــــال

وقد إمتاز عن غيره من باقي الأنهار جملة مزايا

منها أنه أطول أنهار الدنيا القديمة وطوله يبلغ ٥٩٤٠ كيلومتر ومساحة حوضه[١] تبلغ ٢,٨١,٣٠٠ كيلومتر مربع (وأما أكبر أنهار الدنيا الجديدة أي أمريكا فهو نهر (مسيسيبي مسوري) وطوله يبلغ ٦٥٣٠ كيلومتر ومساحة حوضه تبلغ ٣,٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع) ومنها أنه من أعذب الأنهار وأخفها ماء ومنها أنه يمر بمنطقتين من الكرة الأرضية وهما المنطقة المحترقة والمعتدلة الشمالية ويجرى بوسط منطقتين نباتيتين وهما منطقة الموز ومنطقة الأشجار الخالدة الخضرة [٢] ويقطع خطين متوازيين من العرض الشمالي وهما خط الإستواء وخط مدار السرطان ويسقي أرض أمتين متباينتين وهما أصحاب الظلين وأصحاب الظل المختلف [٣]، ويجرى وسط أمتين إحداهما تحصد مع أن الأخرى تزرع [٤] ويقطع أرض أهل ديانتين مختلفتين وهما الدين المسيحي والدين الإسلامي [٥] ويسقي أمتين من الناس متباينتين في اللون وهما الجنس الأسود والجنس الأبيض والقوقازي.

وينحصر من الجنوب والشمال يين مثلثين متقابلين بالرؤس وهما مثلث أرض سنار من الجنوب ومثلث روضة البحرين من الشمال ويتكون من فرعين عظمين وهما البحر الأبيض الآتي من وسط أفريقيا والبحر الأزرق الآتي من بلاد الحبشة ويتفرع إلى فرعين عظيمين وهما الفرع الشرق أو فرع دمياط والفرع الغربي أو فرع رشيد ويهب عليه في وقت واحد ريحان مختلفا الإتجاه وهما الريح الإستوائي أي الهاب من الشرق إلى الغرب في المنطقة المحترقة والهاب من الشمال إلى الجنوب في المنطقة المعتدلة الشمالية وله في كل سنة لونان متباينان وهما اللون الأحمر وقت الزيادة واللون الأسمر وقت التحريق وغير ذلك مما يطول ذكره ولله در القائل

---

(١) حوض النهر هو أرض ينابيعه التي يتكون منها ويقال لها فرش مجاربه ايضاً.

(٢) تنقسم الكرة الأرضية إلى خمس مناطق نباتية وهي منطقة الموز والخبز الثمرى ومنطقة الأشجار الخالدة الخضرة شمالًا ومثلها جنوباً ومنطقة الطحلب شمالًا ومثلها جنوباً وهذه المناطق غير متوازية مع بعضها.

(٣) أصحاب الظلين هم سكان خط الإستواء لأنهم يرون ظلهم جهة الجنوب إذا كانت الشمس في مدار السرطان ويرونه جهة الشمال متى كانت في مدار الجدي أما أصحاب الظل المختلف فهم سكان المنطقة المعتدلة الشمالية والجنوبية لأنهم يرون ظلهم في الشتاء أطول منه في الصيف.

(٤) فصل الحصاد في خط الإستواء هو فصل الزرع عندنا الآن النيل ينقطع جريانه عندهم قبلنا بنحو ٤ أشهر.

(٥) سكان الحبشة ومصر.

فـــــــــــرح الأنام بنـــــــــــيلهم إذ صـــــــار أحمـــــــر كالشـــــــقيق
وتبركـــــــــــوا بشـــــــــــروقه فكأنـــــــــــه وادي العقيـــــــــــق

ولما عرف قدماء المصريين جميع مزاياه وحققوا حسن صدقه ونواياه جعلوا له الخزانات في بعض الجهات وإهتموا بشأنه وبالغوا في مدحه حتى نظموه في سلك آلهتهم وذكروه في خرافاتهم وعملوا له المهرجان وقدموا له القربان وكانوا يصورونه على الآثار في صورة ملك متوج بالأزهار يعرف باسم (حابي) أي النيل السعيد صاحب الفعل السديد وقد ظهر بالحساب الآن أن النيل يقذف في البحر الملح كل سنة مائة وعشرين بليون متر مكعب من الماء الممزوج بالطمي منها تسعون بليوناً في ثلاثة أشهر الفيض والثلاثون الباقية يقذفها في التسعة أشهر الباقية من السنة (البليون ألف مليون والمليون ألف ألف) ومن تأمل في أرض مصر التي كانت فيما سلف صالحة للزراعة وهي الآن عقيمة وليس لها قيمة على أن أرضها وسكانها كانت أكبر وأكثر منها الآن بجملة مرات والله أعلم.